فلسفة ديكارت (١)

للدكتور على العنانى
أستاذ الفلسفة بدار العلوم

شكر واغتباط

أتشرف أيها السادة الأفاضل بأن أقدم عظيم شكرى لحضرة الأستاذ الكبير مدير الجامعة الأميركية فى القاهرة، على ماتكرم به من تهيئة هذه الفرصة العظيمة التى أتاحت لى المثول أمام حضراتكم، لأتحدث إليكم بإلمامة عجلى عن فلسفة ديكارت، جد الفلسفة الحديثة و معلمها الأول العظيم.

وإنى أشكر لحضراتكم جميعا رغبتكم فى سماع هذا الحديث الفلسفى، وأعلن من فوق هذا المنبر، وفى هذه الدار المجيدة، عظيم اغتباطى بها وبمجهودها الثقافى بيننا، كما أعلن نفس هذا الاغتباط أيضا بحفلكم الزاخر، بهذه القاعة التذكارية الآن، تقديرا للنهوض العقلى فى مصر، وطلبا إلى معرفة مقدار الرقى فيه، ومايرمى إلى تحقيقه على جنبات النيل السعيد، وفى جميع ربوع البلاد العربية، وطننا الأكبر العام.

فخر القاهرة بجامعاتها الثلاث

سادتى الأجلاء! إذا افتخرت المدن الجامعية بجامعاتها فى جميع أنحاء العالم المتمدين، فلانجد واحـــدة منها تفاخر بأكثر من جامعة واحدة فيها. ومدينة المعز لدين الله الفاطمى تفاخر الآن كل هاتيك المدن الجامعية، بثلاث جامعات كبرى، آهلة بآلاف الطلاب من الشباب المصرى الناهض، وشباب البلاد العربية الشقيقة. وهذه الجامعات الثلاث هى الجامعة الأزهرية القديمة العظيمة، والجامعة المصرية الحديثة الناهضة، والجامعة الأميركية النبيلة المحسنة؛ ففيها جميعها تنمو اللغة

(١) محاضرة ألقاها الدكتور على العنانى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

العربية وتقوى، وتعظم الحياة العقلية المصرية وترقى؛ وفيها يتعلم الشباب المصرى ويتثقف، وإليها يسعى رواد المعارف من جميع الأقطار العربية، ويختلف هواة العلم والأدب والتهذيب إلى حجر الدراسة، ويؤم قاعات محاضراتها جماهير المصريين النابهين.

ومن الواضح أيها السادة! أنه بمقدار قوة الحركة العقلية فى بلادنا، والانتاج الفكرى فيها، وإقبال الجماهير على دور العلم ومعاهد الثقافة العامة، تكون الصورة الكلية للحياة العقلية عندنا من جهة التكوين ومن حيث المقدار - فى درجة النهوض

وحضراتكم الآن باجتماعكم فى هذه الندوة العلمية تمنحون حياتنا العقلية فى مصر صورة راقية تفخر بها، ولهذا فانى أكرر الأعراب عن اغتباطى آملا أن تصل مصر فى مدى قصير إلى اجتياز دور التقليد العلمى، وأن تدخل قريبا فى دور الانتاج العقلى الخاص، مع أولئكم المنتجين لمعارف القرن العشرين ومدنية الوقت الحديث.

عظمة مصر الخالدة

وإذا طمحت مصر إلى ذلك معاشر المصريين! فانما تطمح إلى مجدها التالد الذى سبقت به جميع أمم المعمورة وأمدتها منه فى غضون آلاف السنين، وأيضا إنما تطمح إلى مجد أثيل لا يفاخر به المصرى الناس فى مواطن التفاخر المألوفة فى هذه الحياة الدنيا فحسب، بل يفاخر به أيضا فى مواطن الانتقال من فضاء الوادى السعيد، إلى رحاب السلام فى دار الخلد والملك الذى ليس له نفاد.

نعم إن المصرى ليفاخر بمجد بلاده فى هذا الموطن، وقد فعل وخلد كلمات الفخار! وإنه لفاعل ذلك أبدا، وإنه لمخلد على الدوام فى ذلك آيات الفخار(١)!!

موضوع الحديث

أيها السادة الأفاضل! نريد كما قلنا فى صدر هذا الحديث أن نتحدث عن ديكارت وفلسفة ديكارت. وإذا نحن حاولنا الحديث فى هذا الفيلسوف العظيم وفى حكمته السامية، فانما نقصد إلى عرض إجمال مختار فى التعرف بحياته، وشخصيته،

(١) اذكر كلمات الشهيد عبد الحكم الجراحى حين أسلم الروح

وأساس مذهبه ، وأثره العظيم فى تاريخ الفلسفة الحديثة ، وقيمته فى تاريخ المذاهب الفلسفية فى العموم . وإنا سنحاول أن يكون هذا الأجمال فى كل ما تقدم معبراً عن الصورة الكلية لشخصية ديكارت وفلسفته ، تلك الصورة التى تتطلب فى إبرازها وتكوينها عشرات المحاضرات

العقل الإنسانى

وإذا نحن تحدثنا عن ديكارت وعن فلسفة ديكارت ، فانما نتحدث فى الواقع وفى العموم عن العقل الانسانى ومعارف الانسان . لذلك يجدر بنا هنا أن نقف هنيهة نسجل فيها ما لهذا العقل من كنه ، وما له من قيمة ومقدار .

وصف الحكماء قديما العقل الانسانى بأوصاف كاشفة مشيرة إلى كنهه ومعبرة عن قيمته ومكانته ، وقد تدرجوا فى ذلك من درجة متواضعة ، إلى درجة سامية ، وسموا إلى درجة ثالثه هى اسمى مرحلة وضع فيها هؤلاء الحكماء عقل الانسان ، فقد قالوا « العقل زينة الانسان » ولا يعنون بذلك الاتزان والوقار فقط ، بل يريدون أيضا المعارف الانسانية التى تتفاوت قيم الناس وأقدارها بتفاوتها فى القيمة والمقدار . وهذا الوصف على مافيه من حقيقة وروعة جلال ، فانه متواضع بالنسبة إلى ما نعته به كثير من الحكماء فى قولهم « الانسان تاج الخليقة » أى أكمل كائنات الوجود العام وأسماها بالنسبة إلى ما أودع فيه من العقل وقوى الأدراك . وهذا النعت وإن سما بالعقل الانسانى إلى أسمى غاية فى الوجود فانه أيضاً متواضع بالنسبة إلى ما قالوه حاكمين على الانسان بأنه بعقله « هو الكون العام مصغرا » أو « الكون العام هو الانسان مكبرا »

هنا وبهذا الحكم نذعن بأن القوة العاقلة الانسانية قد انبثت فى جميع كائنات الوجود واتحدت معها ، فالعقل الانسانى هو الوجود العام ، وهذا الوجود العام هو نفس عقل الأنسان .

ولا شك أن هذا أسمى ما وصل إليه الحكماء فى تقدير العقل الانسانى وتكييف مكانته والأشارة إلى كنهه وحقيقته .

وعندنا ، ونحن على حق ثابت ، أن العقل الانسانى جدير أيضا بأن يوضع

فى المراتب الثلاث الآتية ، فى مقابلة المراتب الثلاث المتقدمة ، اذ من الواضح الجلى أن العقل البشرى « وهو زينة الانسان ، هو أيضا وبالفعل « زينة الوجود العام »

نعم العقل الانسانى زينة الوجود العام ، لأنه لولاه ما أدرك كائن ما وجودا ولا عرف زينة ولافهم ابداعا ولا لمح شيئا مما فى الوجود من انسجام ونظام . ولا شك أن كل ما فى الوجود العام من جمال وزينة وإبداع ونظام وانسجام لامظهر له إلا فى عقل الأنسان ، فهو جمال الكون ، وهوزينته ، وهو كل ما فيه من إبداع وانسجام ونظام

والانسان مع أنه « تاج الخليقة » بعقله ، هو بذلك أيضاً « مرآة الوجود » الذى لا يبرز إلا فيها « ونور الوجود » الذى لا يظهر إلا فيه

والعقل الأنسانى أخيراً مع أنه « الكون العام مصغرا » وأنه بذلك ذات الوجود . فهو « مدد الحقيقة المقدسة الخالدة » أو « فيض العقل الأول ؛ وكائنات الوجود بأكمله هى فيض العقل الانسانى الفائض عن العقل الأول مبدأ الوجود »

وخلاصة كل ذلك أن « العقل الانسانى هو زينة الوجود العام ومرآته ونوره ، وهو فيض الحقيقة ، وعنه فاض الوجود كله » فليس فى الكون العام اسمى من العقل الانسانى إلا الوجود المطلق أو مبدأ الوجود .

أنواع الانتاج العقلى

ولهذا العقل الانسانى إنتاج متعدد الجهات والأنواع بتعدد نواحى الوجود العام وتنوع ظواهره البعيدة عن الحصر ، ولكن من السهل على الملم بتاريخ الحركة العقلية الانسانية من بدء نشأتها حتى الآن ، أن يحصر أنواع الانتاج الفكرى الانسانى فى أربعة أنواع شاملة أو دوائر عامة ، هى دائرة الدين ، والدائرة الفلسفية المتفرعة عنها ، ودائرة الأدب الناشئة عن الدين أيضا ، ودائرة العلوم المتكونة فى النهاية من البحوث الفلسفية والآراء الأدبية قبل أن تأخذ طريقها الخاص

ولكل نوع من الأنواع الأربعة المتقدمة موضوع خاص به ، وطريقته فى البحث التى لا يتعداها إلى غيرها .

وموضوع الفلسفة هو الكون العام . وطريقة البحث الفلسفى فيه إنما ترجع إلى العقل الحر والنظر المستقل دون ارتكاز على وحى أو خيال .

ولقد نظرت الفلسفة منذ نشأتها عند قدماء المصريين وعند الفرس والهنود والصينيين بعد ذلك حتى القرن السادس قبل الميلاد ـ إلى الكون العام شارحة الحقيقة فيه وموضحة ظواهره الطبيعية بطريقتها الخاصة بها ، إلا أن أغلب ما أنتجته هذه الفلسفة فى تلك العصور كان متفقا فى العموم مع مبادىء الدين وشارحاً لأحكامه اللاهوتية ؛ ولذلك كانت الفلسفة عند هذه الأمم الشرقية القديمة دينية فى اتجاهها العام .

ومنذ ابتداء القرن السادس قبل الميلاد سارت الفلسفة فى طريقها الخاص بها عند اليونان ، تشرح الوجود الكلى غير ملتقية مع ما يقوله الدين ، ولكنها عادت فى آخر عهدها اليونانى إلى سيرتها الأولى ، فصارت ممهدة للمسيحية ومؤيدة لها وخادمة إياها فى هيا كلها ، ولقد كان شأنها مع الاسلام كذلك عند الأمم العربية ، حتى عادت إلى أوربا ابتداء من القرن الثالث عشر بعد الميلاد .

هنا مرت الفلسفة بعهد الرنيسانس أو إحياء العلوم الاغريقية القديمة التى كانت ضمن الدائرة الفلسفية ، ولقد ابتدأت هذه العلوم تأخذ استقلالها وتعمل فى مواضيعها الخاصة بطرق البحث التى اختارتها متناسبة مع طبيعتها ، وقد اجتاز البحث العلمى التحرير من سلطان الكنيسة وانتصر فى دور الاصلاح الدينى ثم ألقى على الفلسفة نورا من بحوثه التجريبية قد غير وجه النظر الفلسفى تقريبا ، فاصطدمت الحقائق العلمية مع بعض النظريات الفلسفية . وأخضعت النتائجُ التجريبية الملموسة لسلطانها النظرَ الجامح فيما وراء الطبيعة وفى الغيب وأسرار الوجود .

فى غضون هذا المعترك الفكرى بين الفلسفة والعلم ظهر ديكارت الفيلسوف العظيم جد الفلسفة الحديثة . وقد عمد إلى حل هذه المشكلة الفكرية الكبرى حلا نهائيا بأن تناول الحقائق العلمية ، وأهمل النظر الفلسفى القديم مشيدا هيكله من جديد على أساس من الحقائق العلمية ، متدرجا فى طريقته من الشك إلى تقرير الواقع بحكم النتائج العلمية والجلاء والوضوح .

ديكارت

ولد ديكارت فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فى مدينة لاهاى

أتم دروسه فى الكلية اليسوعية فى لافلاش ثم ذهب إلى باريس فى سنة ١٦١٣ فدرس بها العلوم الرياضية والحقوق ، وفى سنة ١٦١٦ نال إجازة الحقوق وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة

انتظم بعد ذلك فى سلك الجندية فتمكن بذلك من رؤية أماكن كثيرة وفى هذه المدة كون أسلوبه المنطقى .

وبعد أن خدم فى الجندية أربع سنوات تركها وعاد إلى الاشتغال بالعلم وتحصيله ، وقد كان اختط لنفسه خطة لا يتعداها فى طلب المعرفة ، وهى البحث عنها فى نفسه وفى كتاب العالم ، ولذلك سافر كثيرا وشاهد كثيرا .

بقى ديكارت إلى سنة ١٦٢٩ لا يصل الى رأى قاطع فى اختيار مهنة له ، ومن هذا التاريخ عقد النية على أن يشغل طوال حياته بالتهذيب العقلى والبحث بقدر الامكان عن الحقيقة ، فمال إلى العزلة . واختار هولاندا دار مقام له ، ليتسنى له ما يريد من الحرية والعزلة ، وبعد عشرين عاما دعته « كرستيانة » ملكة السويد إلى بلادها ، فشخص إلى استوكهلم ، وقد عاجلته المنية بها بعد مرور عام من وصوله إليها فمات فى شهر فبراير سنة ١٦٥٠ وقد بلغ عمره أربعة وخمسين عاما

مؤلفـــاته

الأسلوب أو الطريقة ، أبحاث فى الفلسفة الأولى ، المبادىء الفلسفية ، الشهوات النفسية ، العالم والانسان ، ورسائل أخرى ، ومصنفات فى الرياضة والطبيعة

وفلسفة ديكارت تنحصر فى المواضيع الآتية :

(١) طريقة التفكير (٢) طرق المعرفة (٣) الطبيعة (٤) الانسان

يعتبر ديكارت المؤسس الأول للفلسفة الحديثة كما كان تاليس للفلسفة القديمة ، لأنه رفض كل مبادىء التفكير المعروفة إلى عهده ، وكون له دعامة جديدة ثابتة من اليقين الشخصى ، وجعل للحقيقة مقياسا خاصا هو الجلاء والوضوح ، واستخدم الأحكام الطبيعية المبنية على العلوم الرياضية والميكانيكية فى النظر الفلسفى

طريقة ديكارت أو أسلوبه

١ — حدود الشك . قال ديكارت : جميع الأشياء التى تظهر لنا عادة بمظهر الحق توجد أسباب تدعو إلى الشك فيها ، فالحواس تخطىء كثيرا والعقل قد يضل ، وإذا كان ذلك كذلك فلا بد للانسان من أن يقف موقف المرتاب ، ولكن ليس للاستمرار عند الشك كما هو مذهب المتشككة ، بل للتغلب على هذا الشك وإزالته نهائيا . ثم قال :

وإذا كنت أشك فى كل شىء فانى لا أشك فى أنى أشك وفى أن الشك تفكير وفى أنى أفكر .

وإذا كنت غير موجود فلا يمكننى أن أفكر ، وحيث إنى أفكر فأنا موجود

فمع الشك فى كل شىء ، وبالشك فى كل شىء بقيت حقيقة لا مراء فيها وهى : « أنا أفكر ، فأنا موجود »

هذه الجملة هى أساس كل فلسفة ديكارت ، كالنقطة فى أنها أساس كل نظر هندسى عند أرشميدس

(٢) مقياس الحقيقة .

استنتج ديكارت من هذه الجملة مقياس الحقيقة بأن قال : إنى لا أرتاب فى معنى هذه الجملة ، فهى واضحة جلية ، لأنى تيقنت أنى أفكر ، ويلزم من ذلك بالضرورة أنى موجود ، وينتج من هذا أن كل شىء يظهر لى بوضوح وجلاء مثل وضوح وجلاء هذه الجملة ، يكون حقا ، أى أن مقياس الحقيقة هو الوضوح والجلاء

(٣) وبناء على هذا المقياس يمكننا أن نصل إلى معرفة انيتنا ، وإلى معرفة كنه الرب ، وإلى معرفة الكون العام .

(ا) أنا أعرف أن الأنية المدركة هى عنصر غير مادى ، وأن كنهها فى الفكر ، فهى النفس ؛ ومعرفتها أسهل وأقرب من معرفة غيرها من الأشياء ، لأنها تدرك من التفكير مباشرة .

(ب) وإذا رجعت إلى نفسى مفكرا فانى أجد فى نفسى عدة تصورات من ضمنها المثل الأعلى للكائن الأبدى التام .

ذلك المثل الذى أسميه الرب ، فالرب موجود .

أنا موجود، وليس وجودى بنفسى، فأنا غير كامل، فاذن الكامل هو الذى أوجدنى، فهو موجود، والكامل هو الرب. فالرب موجود

(ج) إن الرب موجود، وهو حقيقة لا شك فيها، وهو الكمال المطلق، فهو صادق، وبصدقه تعرف الأشياء

إلى هنا ارتفع الشك تماما، وحل محله اليقين فى الشخص، والاله، والكون العام

المعرفة

الإدراك من طريق الحواس لا يوجد فى الانسان تصورا عقليا واجب الصدق لأن الحواس تدرك المواد مع ما فيها من نسب، ومع ما لها من نفع أو ضر لنا لا مع حقائقها المجردة

ومنشأ التصور العقلى إنما هو الصور والفكر الطبيعية، مثل فكرة الأنية، وفكرة الرب، وفكرة الوجود، وفكرة العنصر، ومثل فكر العلة والمعلول والعلة والسببية. ومعنى الفكر الطبيعية عند ديكارت هى المعانى الواصلة من الرب، إلى النفس

فالمعرفة العقلية لابد لها من الفكر الطبيعية. وإدراك الأشياء المادية ضرورى للمعرفة ضرورة السبب فى وجود مسببه

الطبيعة والانسان

ابتدأ ديكارت فى معرفة الطبيعة والانسان من نقطة الجوهر الذى عرفه بانه الموجود الذى لا يحتاج فى وجوده إلى موجود آخر، وبناء على هذا التعريف فلا يوجد سوى جوهر واحد، وهو الرب، أما المخلوقات فانها جواهر نسبية فقط لاستغناء الواحد منها عن الآخر مع احتياجها فى وجودها إلى قدرة الخالق

وهذه الجواهر النسبية لا تعرف بدون واسطة، بل بواسطة أعراضها، وكل جوهر له عرض أصلى واحد فقط يعين وجوده. وما عداه من الأعراض فمميزات للنوع.

فاذا أراد الانسان معرفة جوهر بحث عن عرضه الأصلى المحدد لكنه وجوده والجواهر كلها ترجع إلى روحية ومادية، وعرض الجوهر العقلى التفكير، والجوهر المادى الامتداد

اذا رفعت أى عرض من الأعراض الثانوية عن الجوهر المادى ، فان الجوهر لم يعدم وجوده ، أما إذا رفعت عنه عرض الامتداد بطل وجوده

الأجسام تتجزأ إلى ما لا نهاية ، وقبل حدوثها كانت عبارة عن ذرات منحها الرب مقدارا من الحركة حفظت فيها بدون زيادة وبدون نقصان ، وبواسطة الحركة اتصلت بعض هذه الذرات بالبعض الآخر ، فتكونت عن هذا الاتصال الأجسام الفلكية المتحركة حول نفسها ، لدوام اتصال ذاتها

الجسم والنفس

أوجد ديكارت بين الجسم والنفس حدا فاصلا ، وكون الانسان منهما ، أما الجسم الانسانى فهو كأجسام الحيوانات فى أنها لا تدرك ولا تشعر ، وحياة الجسم (أى حركته) ناشئة عن حرارة الحياة الموجودة فى القلب ، وبواسطة هذه الحرارة تتكون القوة الغاذية والنمو ، وبواسطتها أيضا تكون الحياة الروحية التى هى عبارة عن مادة سائلة تصعد إلى المخ ثم تفيض ثانية إلى الأعصاب

فى هذه الآلة الحية تسكن النفس متخذة مقرها فى الغدة الصنوبرية الكائنة فى وسط الدماغ للجسم

للجسم مظاهر الحيوية التى ترجع إلى حرارة الحياة بدون تأثير للنفس فيها ، غير أنها تدرك تطور هذه الحرارة وتؤثر على الجسم بتغير حركته بدون خلق حركة جديدة فيه

أرجع ديكارت الشهوات الانسانية إلى العلاقة التى بين النفس والجسم وهذه الشهوات ترجع إلى الست الآتيه :

الحب ، والكراهة ، والسرور ، والحزن ، والاستحسان ، والرغبة ؛ وبآراء الانسان المستمدة من العقل يجب أن يتغلب على هذه الشهوة ليكون حرا

والخلاصة أن ديكارت لم يكن شاكا للشك ، ولم يكن مذهبه مذهب شك وجحود ، وإنما كان جازما بصدق القضايا العلمية والأحكام الثابتة فى الميكانيكا والرياضيات ، واتخذها أساسا فى بحثه الفلسفى ، وكان مذهبه مذهب يقين وإيمان جمع بين العلم والفلسفة والدين .

على العنانى